المحاضرة الثالثة

رضاعة النبي (ص)

لقد تناول الباحثون قديماً وحديثاً دراسة السيرة النبوية من أوجه متعددة، لما لها من معطيات على مختلف الأصعدة، ومع ذلك ما زال الكثير من جوانب هذه السيرة العطرة بحاجة لمزيد من الدراسة والتحليل، ومن بين تلك الجوانب؛ ما تناقلته الروايات عن نشأة النبي (ص) في ديار بني سعد التي استغرقت السنوات (٤ــ٦) الأولى من عمره الشريف. لكن لماذا تربى النبي (ص) في ديار بني سعد؟ وكيف قضى تلك السنوات هناك؟ ما الأحداث الهامة التي وقعت له (ص) في تلك الديار؟ مالذي أكتسبه من وجوده في تلك الديار؟ متى عاد (ص) لمكة؟ وما هي أسباب عودته؟. ذكرت بعض الروايات التاريخية إن النبي (ص) تربى في ديار بني سعد لغرض إرضاعه، فبعد ولادته الشريفة يتيم الأب، تكفل جده عبد المطلب برعايته، وبعد أن أرضعته أمه لمدة محدودة لا تتجاوز (٧) أو (٩) أيام، أو سبعة أشهر، نجده قد أرضع من قبل امرأتين الأولى من مكة، والأخرى من بني سعد. إلا أن الروايات لم توضح السبب الذي دعا أم النبي آمنة بنت وهب لعدم الاستمرار في إرضاع وليدها الوحيد، إذ اقتصرت على المدة المذكورة أعلاه! فلقد تولت إرضاع النبي (ص) بعد أمه امرأة تدعى ثويبة لأيام قلائل، إلا إن الروايات لم تبين السبب الذي من أجله أرضعته بدل أمه؟ وكيف تم اختيارها مرضعة؟ ثم من هي هذه المرضعة؟ اكتفى ابن قتيبة بالقول أنها امرأة من مكة، فيما أشار آخرون أنها مولاة لأبي لهب بن عبد المطلب عم النبي (ص)، وكان قد ولد لها ولد أسمه مسروح، وبلبن هذا الولد أرضعت ثويبة كلاً من الحمزة بن عبد المطلب، والنبي محمد (ص)، وأبا سلمة بن عبد الأسد، وجعفر بن أبي طالب. لكن ما المكانة الاجتماعية لثويبة؟ هي مولاة لأبي لهب! إلا انه لم يتضح هل هذا الولاء يعود إليها أم لأبيها أم لزوجها؟ وهل هو ولاء عبودية أم ولاء حلف؟ فضلا عن ذلك هي مجهولة الأب والقبيلة؟ ولا يعرف من هو زوجها الذي ولدت له مسروح؟ ومسروح هذا أيضا مجهول الحال والمصير؟ إذ اكتفى ابن حجر في ترجمته بالقول: " مسروح ولد ثويبة التي أرضعت النبي (ص). ثم كيف تسنى لثويبة إرضاع أولئك الأربعة وهم متباينون في أعمارهم! فالحمزة أكبر من النبي (ص) بأربع سنين، والنبي أكبر من جعفر بعشرين سنة! ولم يتسن معرفة متى ولد أبو سلمة والظاهر انه اصغر من النبي (ص) لان الرواية تشير إن ثويبة أرضعته بعد النبي (ص)؟ ثم لماذا انفردت ثويبة بإرضاع رجالات بني هاشم؟ هل تميزت بخصوصية ما؟ إن الغموض يكتنف سيرة ثويبة! فما هو موقفها من الدعوة الإسلامية، فهل أسلمت؟ هل هاجرت إلى المدينة؟ فهذا موضع خلاف بين المؤرخين؟ يشير ابن سعد وابن الأثير إنها كانت تأتي النبي (ص) في مكة قبل الهجرة فيكرمها وتكرمها خديجة، وهي مملوكة لأبي لهب، ثم أن خديجة طلبت من أبي لهب أن يبيعها إياها لتعتقها فأبى، لكنه اعتقها بعد الهجرة، فكان النبي (ص) يبعث إليها بالصلة، إلى أن بلغه خبر وفاتها منصرفه من خيبر، فسأل عن ابنها مسروح، فقيل له أنه توفي قبلها، فسأل هل لها من قرابة؟ فقيل لم يبق لها أحد. إذن يتضح مما ذكر أعلاه أنها لم تسلم ولم تهاجر. وهذا ما ذهب إليه ابن الجوزي بقوله: (ولا نعلم أحدا ذكر أنها أسلمت غير ما حكى أبو نعيم الأصفهاني إن بعض العلماء قال: قد اختلف في إسلامها)، وقال المحب الطبري: ((لم أظفر بذكر ثويبة وابنها ولعلهما لم يسلما)، أما القرطبي فقال: (لم يقل أحد بها ولا هي أسلمت على المشهور)، في حين قال ابن حجر: " أختلف في إسلامها، وقال أبو نعيم: لا أعلم أحدا أثبت إسلامها". وأضاف: وفي باب إرضاع النبي (ص) من طبقات ابن سعد ما يدل على أنها لم تسلم". إن معرفة إن من بين رواة الروايات التي تحدثت عن ثويبة هو الراوي القاسم بن العباس اللهبي، وهو من أحفاد أبي لهب سيفسر لنا الكثير مما ورد أعلاه !

وبعد ثويبة انتقلت رضاعة النبي (ص) إلى امرأة من بني سعد تسمى حليمة السعدية، التي أشارت الروايات أنها أرضعته سنتين، وبقي في ديار بني سعد لعدة سنوات، إلا إن الروايات قد تباينت في بيان كيفية أخذها للنبي (ص): وأشهرها إن حليمة قدمت مكة مع النسوة لالتماس الرضائع .

لقد أشارت إحدى روايات ابن إسحاق بنوع من التفصيل القصصي لقدوم حليمة مع مجموعة من النساء لالتماس الرضائع في مكة، وهذا نص روايته: (حدثني جهم بن أبي جهم مولى لامرأة من بني تميم, كانت عند الحارث بن حاطب ، فكان يقال مولى الحارث بن حاطب، قال حدثني من سمع عبد الله بن جعفر بن أبي طالب يقول: حدثت عن حليمة ابنة الحارث أم رسول الله (ص)، التي أرضعته إنها قالت: قدمت مكة في نسوة من بني سعد بن بكر, نلتمس بها الرضعاء, وفي سنة شهباء، فقدمت على أتان (أنثى الحمار) لي قمراء (بيضاء)، كانت أذمت بالركب، ومعي صبي لنا، وشارف لنا، والله ما ننام ليلنا ذلك أجمع مع صبينا ذاك، ما نجد في ثديي ما يغنيه، ولا في شارفنا ما يغذيه، فقدمت مكة، فوالله ما علمت منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله (ص) فإذا قيل إنه يتيم تركناه، وقلنا: ماذا عسى أن تصنع إلينا أمه، إنما نرجو المعروف من أبي الوليد، فأما أمه ما عسى أن تصنع إلينا؟ فوالله ما بقي من صواحبي امرأة إلا أخذت رضيعا غيري، فلما لم أجد غيره، قلت لزوجي الحارث بن عبد العزى: والله إني أكره أن أرجع من بين صواحبي ليس معي رضيع، لانطلقن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه، قال: لا عليك، فذهبت فأخذته، فوالله ما أخذته إلا أني لم أجد غيره!).

وجاء في رواية لابن سعد يرويها رواة من بني سعد: ((أخبرنا محمد بن عمر بن واقد الأسلمي أخبرنا زكريا بن يحيى بن يزيد السعدي عن أبيه قال: قدم مكة عشر نسوة من بني سعد بن بكر يطلبن الرضاع فأصبن الرضاع كلهن إلا حليمة بنت عبد الله ابن الحارث بن شجنة بن جابر بن رزام بن ناصرة بن فصية بن نصر بن سعد بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة، وكان معها زوجها الحارث بن عبد العزى بن رفاعة بن ملان بن ناصرة بن فصية بن نصر بن سعد بن بكر بن هوازن، ويكنى أبا ذؤيب، وولدها منه عبد الله بن الحارث ، وكانت ترضعه وأنيسة بنت الحارث وجذامة بنت الحارث وهي الشيماء ... فعرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعلت تقول يتيم لا مال له، وما عسى أمه أن تفعل ...)).

الذي يمكن أن نسجله على الروايتين:

١ ــ هل إن قدوم النساء لطلب الرضائع عادة متبعة عند العرب عموما؟ وهل القدوم لمكة فقط أم لبعضها دون بعض أم لسائر الأماكن في الجزيرة؟ هذا مالم نجد له مصداقا على ارض الواقع ما خلا روايات إرضاع النبي (ص).

٢ ــ أن حليمة اكتفت ببيان حالها المأساوي ولم تشر إلى حال باقي النسوة. ولكن إذا كان هكذا حال ديار بني سعد من الجدب حتى أن المرأة لا يبض ثدييها قطرة من اللبن فلماذا أعطاهم أهل مكة أطفالهم؟

٣ ــ لم تشر الرواية إلى السبب الذي من أجله طُلب للنبي (ص)مرضعة؟

٤ ــ أكدت الرواية على لسان حليمة أن هناك إصراراً على رفض إرضاع النبي (ص) من قبل كل النسوة بما فيهن حليمة لأنه يتيم: " فوالله ما علمت منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله (ص) فإذا قيل إنه يتيم تركناه، وقلنا: ماذا عسى أن تصنع إلينا أمه، إنما نرجو المعروف من أبي الوليد، فأما أمه ما عسى أن تصنع إلينا". وجاء في رواية ابن سعد " فعرض عليها [حليمة] رسول الله (ص) فجعلت تقول يتيم لا مال له، وما عسى أمه أن تفعل". فهل هنا الراوي جاهل بحقيقة عبد المطلب أم انه يتجاهل ! فهو يتحدث عن أم النبي (ص) فقط! ولأن أباه ميتٌ فماذا عسى أن تنفعهم بالعطاء الذي عجزت كل الروايات أن تبين مقداره. ولذا لم يشر الراوي إلى عبد المطلب جهلا أو تجاهلا.

٥ ــ تشير الرواية أن حليمة لم تأخذ النبي (ص) رغبة وإنما اضطرت إلى ذلك إذ لم تجد صبيا، ولكي لا تعود من بين صويحباتها اضطرت لأخذ النبي (ص) " فوالله ما بقي من صواحبي امرأة إلا أخذت رضيعا غيري، فلما لم أجد غيره، قلت لزوجي الحارث بن عبد العزى : والله إني أكره أن أرجع من بين صواحبي ليس معي رضيع، لانطلقن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه، قال: لا عليك، فذهبت، فأخذته، فوالله ما أخذته إلا أني لم أجد غيره ".

٦ ــ تغلب على الرواية الألفاظ الإسلامية، مع أن الحادثة وقعت قبل بعثة النبي (ص)، منها: " والله ما ننام ليلنا ذلك أجمع مع صبينا ذاك"، و "فوالله ما علمت منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله (ص)" و " فوالله ما بقي من صواحبي امرأة إلا أخذت رضيعا غيري" ، و " والله إني أكره أن أرجع من بين صواحبي ليس معي رضيع" ، و" فوالله ما أخذته إلا أني لم أجد غيره".

٧ ــ لم تصرح الرواية بأسماء النسوة الباقيات، ولا بأسماء الأطفال الذين أخذوا للإرضاع. ولم نقرأ ونسمع عنهن ولا عن أولئك الأطفال.

٨ ــ لم نجد أحدا تحدث بأنه كان من ضمن الذين تربوا في ديار بني سعد مع النبي (ص) خاصة وان العلاقة مع النبي (ص) لها مكانة متميزة.

٩ ــ لم تشر هذه الرواية وغيرها إلى طبيعة الاتفاق حول إرضاع النبي (ص) مدة وكلفة.

١٠ ــ يا ترى ما موقف آمنة وهي تفارق طفلها الوحيد لسنوات وهو في أيامه الأولى، لا سيما بعد فقدانها لزوجها وهما في ربيع عمرهما؟ فكيف تسنى لها مفارقة ولدها؟

١١ ــ هل ما حصل هو أمر طبيعي أم حكمة إلهية؟ فان كان أمراً طبيعياً، فلماذا لا نجد له مصاديق لغير النبي (ص)؟ وان كان لحكمة إلهية فيا ترى ما الحكمة الإلهية من وراء ذلك؟

١٢ ــ أن الوقوف عند سند الرواية يلقي بظله على ما ذكر أعلاه، فرواية ابن اسحق تروى عن شخص لا يعرف عنه إلا الاسم، وهو جهم بن أبي الجهم، ثم انه سمع شخصا يحدث عن عبد الله بن جعفر، فمن هو هذا الشخص؟ ويأتي الدور لعبد الله بن جعفر، إذ يقول: حُدثت عن حليمة، فمن هو الذي حدثه؟ فالرواة مجاهيل. أما رواية ابن سعد فيرويها عن الواقدي الذي بدوره يرويها عن شخص من بني سعد وهو زكرياء بن يحيى بن يزيد السعدي عن أبيه، ولما تصفحنا كتب التاريخ والرجال لنتعرف على وزن هذه الشخصية خابت آمالنا ولم تسعفنا تلك الكتب بأي إشارة عنه!

وعلى أية حال فأن الروايات وان اختلفت في كيفية استئجار مرضعة للنبي (ص) فإنها اتفقت على إن المرضعة هي حليمة بنت أبي ذؤيب عبد الله بن الحارث من بني سعد بن بكر بن هوازن، وكانت متزوجة من الحارث بن عبد العزى من بني سعد بن بكر بن هوازن، وولدت له حذافة التي تسمى الشيماء، وأنيسة، وعبد الله، وبلبن عبد الله هذا أرضعت النبي (ص).

وبعد أن أخذت حليمة النبي (ص) اضطرارا تبين أن ذلك من مصلحتها، إذ أفاضت الرواية ببيان تلك الكرامات التي أسبغت على بيت حليمة من جراء أخذها للنبي (ص)، إذ تقول: " فما هو إلا أن أخذته، فجئت به رحلي، فأقبل عليه ثدياي بما شاء من اللبن فشرب حتى روي، وشرب أخوه حتى روي، وقام صاحبي إلى شارفنا تلك فإذا إنها لحافل، فحلب ما شرب وشربت حتى روينا فبتنا بخير ليلة، فقال صاحبي: يا حليمة، والله أني لأراك قد أخذت نسمة مباركة، ألم تري إلى ما بتنا به الليلة من الخير حتى أخذناه؟! فلم يزل الله يزيدنا خيراً، حتى خرجنا راجعين إلى بلادنا، فوالله لقطعت أتاني بالركب حتى ما يتعلق بها حمار، حتى أن صواحبي ليقلن: ويلك يا بنت أبي ذؤيب، أهذه أتانك التي خرجت عليها معنا؟ فأقول: نعم، والله إنها لهي،

فيقلن: والله إن لها لشأناً، حتى قدمنا أرض بني سعد، وما أعلم أرضاً من أرض الله عز وجل أجدب منها، فإن كانت غنمي تسرح ثم تروح شباعاً، لبناً، فنحلب ما شئنا، وما حولنا احد تبض له شاة بقطرة لبن، وإن أغنامهم لتروح جياعاً، حتى أنهم ليقولون لرعيانهم: ويحكم انظروا حيث تسرح غنم بنت أبي ذؤيب، فاسرحوا معهم، فيسرحون مع غنمي حيث تسرح، فيريحون أغنامهم جياعا، وما فيها قطرة لبن، وتروح غنمي شباعا، لبنا، نحلب ما شئنا فلن يزل الله عز وجل يرينا البركة، ونتعرفها حتى بلغ سنتيه".

فيما تشير رواية السعدي إن النساء بعد أن حصلن على الأطفال مضين وتركن حليمة في مكة، التي اضطرت للقبول بالأمر الواقع فأخذت النبي (ص)، " فخرج النسوة وخلفنها، فقالت حليمة لزوجها: ما ترى؟ قد خرج صواحبي وليس بمكة غلام يسترضع إلا هذا الغلام اليتيم، فلو إنا أخذناه، فاني اكره أن نرجع إلى بلادنا ولم نأخذ شيئا، فقال لها زوجها: خُذيه عسى الله أن يجعل لنا فيه خيرا، فجاءت إلى أمه فأخذته منها فوضعته في حجرها، فاقبل عليه ثدياها، حتى يقطرا لبنا، فشرب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى روي، وشرب أخوه، ولقد كان أخوه لا ينام من الغرث".

بل إن رواية السعدي أكدت إن إرضاع حليمة للنبي (ص) جاء بناءً على أمر صدر لأم النبي (ص) من جهة مجهولة، إذ روى إن آمنة قالت: قيل لي ثلاث ليال: استرضعي ابنك في بني سعد بن بكر، ثم في آل ذؤيب، قالت حليمة: فإن أبا هذا الغلام الذي في حجري أبو ذؤيب، وهو زوجي، فطابت نفس حليمة، وسرت بكل ما سمعت، ثم خرجت به إلى منزلها". وأدركت صويحباتها في وادي السرر اللواتي حسدنها على ما نالت.

والملاحظ إن الروايات تباينت في تعريفها لشخص أبي ذؤيب فهل هو أبو حليمة أم زوجها؟ ولكن ما الفائدة والحكمة من وراء هذه الكرامات؟ ولماذا اختيرت ديار بني سعد مكانا لتلك الكرامات التي لم تتعدَ بيت حليمة؟ هل من آثار بعيدة المدى نتجت على أثر هذه الكرامات؟ إن مجهولية بعض الرواة ونسبة بعضهم لبني سعد قد يلقي بظلاله على تفسير ما ذكر أعلاه!

في ظل هذه الأجواء قضى النبي (ص) السنتين الأولى من عمره الشريف، وبهذا انتهت فترة الإرضاع ولا بد من إعادته لمكة، قالت حليمة: " فلن يزل الله عز وجل يرينا البركة، ونتعرفها حتى بلغ سنتيه، وكان يشب شبابا لا يشبه الغلمان، فوالله ما بلغ سنتيه حتى كان غلاما جفرا، فقدمنا به على أمه". وفي رواية أبو نعيم الاصبهاني: " مكث صلى الله عليه وسلم سنتين عند حليمة حتى فطم. فكأنه ابن أربع سنين، فقدموا به على أمه زائرين لها وهم أحرص على مكانه لما رأوا من عظم بركته". والظاهر من الرواية إن النبي (ص) قد تعرض لمحاولة اغتيال من بعض النصارى الذين أدركوا انه نبي، قال ابن إسحاق: " إن نفرا من الحبشة نصارى رأوه معها حين رجعت بعد فطامه، فنظروا إليه وسألوها عنه وقلبوه، ثم قالوا لها: لتأخذن هذا الغلام فلنذهبن به إلى ملكنا وبلدنا، فإن هذا غلام كائن له شأن، نحن نعرف أمره فزعم الذي حدثني أنها لم تكد تنفلت به منهم)).

وفي رواية أبي نعيم الاصبهاني: " فلما كانوا بوادي السرر، لقيت نفراً من الحبشة وهم خارجون منها فرافقتهم فسألوها فنظروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم نظرا شديدا ثم نظروا إلى خاتم النبوة بين كتفيه، والى حمرة في عينيه فقالوا: يشتكى أبدا عينيه للحمرة التي فيها؟ قالت: لا، ولكن هذه الحمرة لا تفارقه، فقالوا: هذا والله نبي، فغالبوها عليه فخافتهم أن يغلبوها ، فمنعه الله عز وجل "

وفي رواية لابن اسحق" إن حليمة أضلت النبي صلى الله عليه وسلم في طريق عودتها لمكة"، ولم يتضح هل ذلك بسبب بمحاولة الاغتيال التي تعرض لها النبي (ص) من قبل بعض نصارى الحبشة لأنهم أدركوا انه نبي؟ أم جاءت محاولة الاغتيال لأنهم عرفوه انه حفيد عبد المطلب الذي كانت حملة الفيل الفاشلة في أيامه!

ومهما يكن فان حليمة قد عادت بالنبي (ص) مجددا إلى ديار بني سعد، وكان السبب في إعادته هو الخوف من وباء مكة. قال ابن اسحق: " فقدمنا به على أمه، ونحن أظن شيء به مما رأينا فيه من البركة، فلما رأته أمه، قلنا لها: يا ظئر دعينا نرجع ببنينا هذه السنة، فإنا نخشى عليه أوباء مكة، فوالله مازلنا بها حتى قالت نعم فسرحته معنا)). فيما ذكر أبو نعيم الاصبهاني إن آمنة هي التي أشارت على حليمة بإعادة النبي معها خوفا من الوباء " فدخلت به على أمه وأخبرتها بخبره وما رأوا من بركته وخبر الحبشة، فقالت آمنة: ارجعي بابني فإني أخاف عليه وباء مكة فوالله ليكونن له شأن، فرجعت به. وبعد عودة النبي (ص) إلى ديار بني سعد أمضى مابين ٢ ــ ٤ سنوات أخرى هناك، ومن خلال بضعة روايات تبين إن من الأحداث التي مرت بالنبي (ص) هي: ١ ــ حضوره سوق ذي المجاز. ٢ ــ رعيه للبهم. ٣ ــ شق صدره الشريف. أما حضوره سوق ذي المجاز فكان مع حليمة، ولم يتضح السبب الذي من اجله أخذته لهذا السوق؟ واقتصرت الرواية على الإشارة إلى كاهن عرف حقيقة النبي ودعا الناس لقتله، لكنه (ص) تمكن من النجاة بمساعدة حليمة.

أما رعايته للغنم فالظاهر اقتصرت على رعاية البهم وهي صغار الغنم قرب البيوت. وكان النبي يرعاها مع أخيه من الرضاعة وهو عبد الله، ومع أخته الشيماء، وانه كان يلعب مع الغلمان، ومن لعبهم التقاذف بالجلة. ومن الحوادث المهمة التي عجلت بإرجاعه إلى مكة هو ما حصل للنبي (ص) من شق صدره الشريف، فقد أشارت عدة من الروايات لهذه الحادثة، منها: ((عن حليمة ابنة الحارث قالت ... فبينا نحن خلف بيوتنا، وهو مع أخ له من الرضاعة في بهم لنا، جاءنا أخوه يشتد، فقال: ذاك أخي القرشي قد جاءه رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاه فشقا بطنه، فخرجت أنا وأبوه نشتد نحوه، فنجده قائما، منتقعاً لونه، فاعتنقه أبوه، وقال: أي بني، ما شأنك ؟ قال : جاءني رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاني فشقا بطني، ثم استخرجا منه شيئاً فطرحاه، ثم رداه كما كان)).

– ((عن أصحاب رسول الله (ص) أنهم قالوا: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك ، فقال : ... فبينا أنا مع أخٍ لي في بهم لنا ، أتاني رجلان عليهما ثياب بيض ، معهما طست من ذهب مملوءة ثلجاً ، فأضجعاني ، فشقا بطني ، ثم استخرجا قلبي فشقاه ، فأخرجا منه علقة سوداء ، فألقياها ، ثم غسلا قلبي وبطني بذاك الثلج ، حتى إذا أنقياه ، رداه كما كان ، ثم قال أحدهما ، لصاحبه : زنه بعشرة من أمته ، فوزنني بعشرة ، فوزنتهم ، ثم قال زنه بألف من أمته ، فوزنني بألف ، فوزنتهم ، فقال : دعه عنك ، فلو وزنته بأمته لوزنهم)) .

– ((قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن ملكين جاءاني في صورة كركين ، معهما ثلج وماء بارد ، فشرح أحدهما صدري ، ومد الآخر منقاره ، فغسله)) .

ــ ((ولما بلغ أربع سنين كان يغدوا مع أخيه وأخته في البهم قريبا من الحي فأتاه الملكان هناك فشقا بطنه واستخرجا علقة سوداء فطرحاها وغسلا بطنه بماء الثلج في طست من ذهب ثم وزن بألف من أمته فوزنهم ، فقال أحدهما للآخر : دعه فلو وزن بأمته كلها لوزنهم ، وجاء أخوه يصيح بأمه : أدركي أخي القرشي ، فخرجت أمه تعدو ومعها أبوه فيجد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم منتقع اللون ...)) .

ــ ((أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كيف كان أول شأنك يا رسول الله قال النبي (ص) ... فأقبل طيران أبيضان كأنهما نسران ، فقال أحدهما لصاحبه أهو هو؟ قال : نعم ، قال فأقبلا يبتدراني فأخذاني فبطحاني للقفا فشقا بطني ثم استخرجا قلبي فشقاه ، فأخرجا منه علقتين فقال أحدهما لصاحبه : آتيني بماء ثلج فغسلا به قلبي ثم قال آتيني بالسكينة فدارها في قلبي ثم أظنه قال أحدهما لصاحبه : حصه فحاصه ، وختم عليه بخاتم النبوة . فقال أحدهما لصاحبه : اجعله في كفة واجعل ألفاً من أمته في كفة ، فإذا أنظر إلى

الألف فوقي أشفق أن يخر على بعضهم ، فقال : لو أن أمته وزنت به لمال ثم انطلقا وتركاني وفرقت فرقاً شديداً ثم انطلقت إلى أمي فأخبرتها بالذي لقيت فأشفقت أن يكون قد التبس بي فقالت أعيذك الله فرحلت بعيراً لها فجعلتني على الرحل وركبت خلفي حتى بلغتني إلى أمي...)) .

ــ ((عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه ، فاستخرج القلب فاستخرج منه علقة فقال : هذا حظ الشيطان منك ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ُ ثم أعاده في مكانه ، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه يعني ظئره فقالوا : إن محمداً قد قتل فاستقبلوه ، وهو منتقع اللون قال أنس وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره)) .

ــ ((فلم يزل مقيماً في بني سعد يرون به البركة في أنفسهم وأموالهم حتى كان من شأنه في الذي أتاه في صورة رجل ، فشق عن بطنه وغسل جوفه ، ما كان . فخافوا عليه وردوه إلى جده عبد المطلــب ...)) .

ــ ((عن شداد بن أوس قال بينا نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أقبل شيخ من بني عامر وهو مدرة قومه ... فمثل بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم قائماً ... فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا أخا بني عامر إن حقيقة قولي وبدء شأني ... كنت مسترضعاً في بني سعد فبينا أنا ذات يوم منتبذ من أهلي في بطن واد مع أتراب لي من الصبيان نتقاذف بيننا بالجلة إذ أتانا رهط ثلاثة معهم طست من ذهب مليء ثلجاً ، فأخذوني من بين أصحابي فخرج أصحابي هرابا حتى انتهوا إلى شفير الوادي ثم اقبلوا على الرهط فقالوا : ما أرابكم إلى هذا الغلام فإنه ليس منا هذا ابن سيد قريش وهو مسترضع فينا من غلام يتيم ليس له أب ... انطلقوا هرابا مسرعين إلى الحي ... فعمد أحدهم فأضجعني على الأرض إضجاعا لطيفا ثم شق مابين مفرق صدري إلى منتهى عانتي ، وأنا أنظر إليه لم أجد لذلك مساً ثم أخرج أحشاء بطني ثم غسلها ... ثم قام الثاني منهم فقال لصاحبه : تَنَح فنحاه عني ثم أدخل يده في جوفي ، فأخرج قلبي وأنا أنظر إليه فصرعه ثم أخرج منه مضغة سوداء فرمى بها ثــم قال بيــده اليمنى منه كأنه يتناول شيئاً فإذا أنا بخاتم في يده من نور فختم به قلبي فامتلأ نوراً ...)).

لقد كانت هذه الحادثة سببا في إعادة النبي (ص) إلى مكة. والآن لنقف عند الروايات أعلاه ونسجل الملاحظات الآتية :

١ – نلاحظ أن الروايات اختلفت في تحديد المكان الذي وقعت فيه الحادثة . هل خلف بيت حليمة ؟ أم كان النبي منتبذ في بطن واد مع أتراب له ؟ فهل وقعت مرة أم مرتين ؟

٢– الاختلاف في عدد الأطفال الذين كانوا مع الرسول (صلى الله عليه وآله) ، ففي رواية إن النبي (ص) مع أخ له فقط ، وفي رواية أخرى كان النبي (ص) مع أخيه وأخته ، وثالثة كان معه عدد من الصبيان(مع أتراب لي).

٣– التباين في حال النبي (ص) وقت الحادثة هل انه يرعى بهما خلف البيوت، أم يلعب مع أقرانه يتقاذفون بالجلة؟

٤ــ التباين في الذي أخبر حليمة بالحادثة؟ هل أخوه من الرضاعة؟ أم أترابه؟ أم النبي نفسه؟

٥– أن الروايات تباينت في عدد وهيأة الملائكة ؟ فتارة على هيئة البشر ، ولكن اختلف في عددهم هل واحد أم اثنين أم ثلاثة ؟ وتارة طائران ، وحددتهما إحدى الروايات بكونهما كركين ، أو كأنهما نسرين ؟ وتارة ملكين ؟ وأخرى جبرئيل لوحده ؟

٦ – خلطت إحدى الروايات بين هذه الحادثة وحادثة مشابهة ، إذ أشارت الروايات أنها وقعت في مكة، فأشارت أن قلب النبي (ص) غسل بماء زمزم مع أن الحادثة وقعت وهو في ديار بني سعد؟

٧ – وتباينت الروايات في المستخرج من قلب النبي هل هي علقة أم مضغة سوداء ، واختلف في العلقة المستخرجة والتي كان فيها حظ الشيطان ؟!! هل علقة واحدة أم علقتان ؟
٨– هل ما حصل للنبي (ص) ترك أثرا سلبيا في نفسه وخاف منهم ؟ إذن هل حاول الهرب ؟ أو هل أبدى مقاومة ؟ أم انه أدرك أنهم من الملائكة ؟
٩– والغريب إن واحدا من الصحابة وبعد أكثر من خمسين سنة رأى أثر ذلك المخيط في صدر الرسول ((ص)) ؟ في الوقت الذي لم تر واحدة من زوجاته ذلك المخيط ؟!
١٠– ذكرت بعض الروايات أن الملائكة وزنت الرسول (صلى الله عليه وآله) بأمته ففاق أمته . لكن يا ترى كيف تم هذا الميزان ؟ وما هو نوع الميزان الذي وزن فيه ؟
١١– ومما يلاحظ أيضا هو أن بعض الروايات أشارت إلى أن عملية غسل قلبه (ص) كانت في طست من ذهب ، في حين نلاحظ أن روايات أخرى لا تذكر هذا الطست ؟
١٢– يظهر من الرواية إن القصد من هذه العملية هو تنقية قلب النبي (ص) . ولكن السؤال : إن النبي (ص) كان له من العمر اقل من خمس سنوات فأنى تسربت الذنوب إلى قلبه الشريف ؟ ولو قلنا بصحة وجود شيء من هذا فهل تطهيره يتم بهذه الطريقة ؟ أم هل العقائد والتوبة تطهر بالماء ؟ .
١٣– إن هذه الحادثة تتنافى مع الحقيقة القرآنية التي تؤكد أن لا سبيل للشيطان إلى عباد الله المخلصين وفي مقدمتهم النبي محمد (ص) : كقوله تعالى ((إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)) ، وقوله ((قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ)، وقوله ((إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)) .
١٤– إن أصل الرواية جاهلي مأخوذة عن أهل الجاهلية ، فقد جاء : أن أمية بن أبي الصلت كان نائما ؟ فجاء طائران فوقع احدهما على باب البيت ، ودخل الآخر فشق عن قلب أمية ثم رده الطائر ، فقال له الطائر الآخر : أوعى ؟؟ قال : نعم . قال : زكا ؟ قال : أبى . وفي رواية أخرى : انه دخل ، فنام على سرير في ناحية البيت ، قال : فانشق جانب من السقف في البيت ، وإذا بطائرين قد وقع احدهما على صدره ووقف الآخر مكانه ، فشق الواقع على صدره ، فاخرج قلبه ، فقال الطائر الواقف للطائر الذي على صدره : أوعى ؟ قال : وعى . قال : اقبل ؟ قال : أبى قال : فرد قلبه في موضعه ... ثم تذكر الرواية تكرار الشق له أربع مرات.
١٥ــ ونستشف من روايات أخرى إن الحادثة قد تكررت في أماكن عدة في زمزم والحطيم وحول الكعبة، وفي بعض بطحاء مكة، وفي بيت النبي (ص) وفي الصحراء؟ فلماذا هذا التكرار ؟ وما السر في هذا الأسلوب مع النبي وشق صدره مرارا ؟ هل هذا يعني فشل الحالات السابقة ؟ أم إن تلك العلقة السوداء تعاود النمو في قلب النبي مما يستدعي استئصالها من جديد !
إن هذه الحادثة كانت سببا في إثارة المخاوف لدى حليمة السعدية فاضطرت إلى إعادة النبي إلى مكة وهو قد أكمل خمس سنوات. وهنا نسجل ملاحظات عامة حول هذه النشأة :
١ ــ لم يتضح السبب الواقعي لأخذ النبي (ص) وإرضاعه في بني سعد .
٢ ــ لماذا لم ترضعه أمه ؟ ثم كيف استطاعت فراق وليدها الصغير واليتيم ، وهي بالأمس قد فقدت زوجها في عنفوان شبابه ؟
٣ ــ ما الحكمة من بقاء النبي (ص) هذه المدة من طفولته ،إذ يفارق أمه وجده ومدينته لخمس أو ست سنوات ؟

٤ ــ لم توضح الروايات كيف عاش النبي في ديار بني سعد ؟ ما خلا إشارتها إلى رعيه البهم ؟
٥ ــ لم تشر الروايات إلى الأطفال الذين اخذوا مع النبي ؟ ولا إلى علاقة النبي بهؤلاء الأطفال ؟ ومتى عادوا إلى مكة ؟
٦ ــ يظهر دورُ واضحُ للكهان والنصارى ، فهل يفسر لنا هذا اصطناع الروايات بوقت متأخر لتدلل على امتلاكهم العلم ؟
٧ ــ وجود رواة من بني سعد مجهولي الحال يلقي بظلاله على الموضوع .
٨ ــ وجود راو من ذرية أبي لهب ربما يفسر لنا تلك الروايات الخاصة بثويبة وأبي لهب ؟
٩ ــ سلسلة السند : إن الوقوف عند سند الروايات التي تحدثت عن نشأة النبي (ص) في ديار بني سعد يدعونا للتأمل إذ إن :
أ ــ اغلب الروايات مرسلة .
ب ــ إن رواتها مابين ضعيف ومدلس ومجهول ووضاع ومتروك ولا يعتمد على كلامه.
ج – لا يخلو إسناد الروايات من راوٍ مجهول مثل جهم بن أبي جهم مولى لزوجة الحارث بن حاطب الجمحي، إلا إن كتب الرجال أنكرته، إذ قال ابن عدي: ((مجهول لا يعرف له اسم ، وخبره منكر)) ، وقال الذهبي ، وابن حجر: ((لا يعرف ، له قصة حليمة السعدية)) ، وكذلك قال الهيثمي: ((لا أعرفه)) . ولم نجد له ذكراً إلا في قصة حليمة السعدية فقط التي ذكرها ابن إسحاق .
د ــ هناك رواة يظهر أنهم من بني سعد كزكريا بن يحيى بن يزيد السعدي الذي يروي عن أبيه ، وكذلك عبد الصمد بن محمد السعدي والذي يروي عن أبيه عن جده ، إلا أننا لم نجد لهم أي خبر أو أثر في كتب التاريخ والتراجم .
هـ ــ وهناك روايات مأخوذة عن أشخاص لا تعرف حتى أسماؤهم فضلا عن تراجمهم ، فجهم بن أبي الجهم الذي رأينا انه شخصية مجهولة الحال، فانه يروي عمن سمع عبد الله بن جعفر ، وهذا الذي سمع مجهول فلا نعرف حتى اسمه ، ثم إن السند يشير إن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب يقول : حُدثت عن حليمة ابنة الحارث ، وهنا السؤال أيضا : من هذا الذي سمع حليمة وحدث عبد الله . فسلسلة السند التي يذكرها ابن إسحاق والتي تحكي تفاصيل أكثر عن قصة حليمة ورضاعتها للنبي (ص) رواتها مجاهيل وقد أقحم اسم عبد الله بن جعفر في السلسلة .
و ــ وفي رواية لابن إسحاق عن خالد بن معدان الذي مرت ترجمته ، ورأينا انه كان مدلسا فانه رمى العهدة على " أصحاب رسول الله " ، وهنا فانه لم يسمعها من صحابي واحد حسب زعمه وإنما من عدة أصحاب ! فلم لا يذكر لنا أسماء أولئك الأصحاب ؟ فهل صحابة الرسول (ص) مجاهيل الحال ولا تعرف أسمائهم ؟ أم انه نسى أسمائهم ؟ فهلا ذكر احدهم ؟
ز ــ بل إن ابن إسحاق نفسه يورد بعض رواياته عن مجاهيل بقوله : عن بعض أهل العلم ، فيا ترى هل أن ابن اسحق ذلك المؤرخ المتتبع لا يعرف من هم أولئك أهل العلم ؟ أم تراه لا يرى إنهم من أهل العلم حقيقة ، ولكنه ذكرها من باب كونه يذكرها كمؤرخ يورد الروايات بغض النظر عن القول بصحتها .
ح ــ ويظهر إن ابن إسحاق يشكك في بعض ما يرويه ، إذ نجده يورد ألفاظاً تفيد التشكيك كأقواله : (وزعم الناس ، يزعمون) .
ط – واسند ابن إسحاق إحدى رواياته عن رجال من بني سعد ، فيما اسند ابن سعد في سند إحدى رواياته (عن شيخ من بني سعد) ، واسند الطبري إحدى رواياته عن شيخ من بني عامر ؟ فيما اسند الاصبهاني عن

بعض من كان يرعى غنم حليمة ، فيا ترى من هم أولئك رجال سند ابن إسحاق ، ومن هو شيخ بني سعد ، وشيخ بني عامر ، ومن هم رعاة حليمة ؟

بعد هذه الدراسة للروايات التي أشارت إلى حياة الرسول (ص) في بني سعد ، تبين إن ما ذكر يتنافى مع الواقع التاريخي، إذ لا نجد مصاديق لحالات إرضاع لشخصيات قرشية، كما لم يتضح هل إن طلب الإرضاع خاص ببني سعد أم بسائر القبائل العربية، وهذا ما لم نجد ما يدعمه، ثم إن الإرضاع لا يتجاوز السنتين فلماذا بقي هذه المدة . أما ما يخص مسألة شق الصدر ، فالمسألة في واقع الحال تحتاج لمزيد من التأمل .

إذن يا ترى ما تفسير روايات تربية النبي (ص) في بني سعد :

ــ هل تعود هذه الروايات لخلق فضائل لقبيلة بني سعد ! خاصة وانه بعد الإسلام أخذت القبائل تدعي القرب من الرسول (ص) !

ــ أم إن الأمر لا يبعد من تدخل الأثر الإسرائيلي وربطه بحادثة الإرضاع الخاصة بالنبي موسى عليه السلام، والذي رفض المراضع، إلا إن النبي محمد (ص) رُفض من قبل المراضع ، وفي هذا فضيلة لموسى عليه السلام على النبي محمد (ص) .

إذن يتضح إن وجود النبي (ص) في ديار بني سعد بحاجة إلى إعادة نظر إذ لم تقو الأدلة على تأكيد صحته ، والظاهر إنه (ص) عاش في مكة وفي أحضان والدته آمنة وبرعاية جده عبد المطلب الذي حدب عليه كثيراً ، وأولاه من الرعاية لما كان يتفرس به من شمائل الأصالة . إلا إن الروايات لم تقدم لنا شيئاً عن هذه الفترة المبكرة من حياة النبي (ص) . ما خلا الروايات التي عرضناها أعلاه عن تربيته صلى الله عليه وآله في بني سعد . مكتفية بالإشارة انه لما بلغ السادسة من عمره ذهبت به أمه آمنة إلى أخواله بني عدي بن النجار في يثرب (المدينة المنورة) ، وفي أثناء عودتها لمكة توفيت في الطريق.